حـرف الصـاد

صخر بن حرب رضي الله عنه

الثائب إلى الحق

صحابي، قرشي، أُموي، المعروف بأبي سفيان، ولد قبل حادثة الفيل بعشر سنوات، وكان من سادة قريش وأشرافها في الجاهلية، وكان ذا ثروة ومال وخبرة في التجارة، وكان يذهب بِعير الزعماء من قريش إلى الشام، ويتاجر لهم، وربما ذهب إلى بلاد العجم للغرض ذاته.

وقيل: إنه أحد ثلاثة من قريش يُعُتَدُّ برأيهم، وكان الآخران «عتبة بن ربيعة» و«الحكم بن هشام» المعروف بأبي جهل، ولما ظهر رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، خانتهم آراؤهم، وناصبوا دعوة الحق التي دعاهم إليها أشد العداوة، وأظهروا له الحقد والبغضاء، وأنزلوا برسول الله ﷺ وأصحابه أبلغ الإيذاء، فألجؤوهم إلى شعب أبي طالب، وفرضوا عليهم حصاراً غاشماً دام ثلاث سنوات، فخرج بعضهم إلى الحبشة ليعبدوا الله في أمان، وحين أجمعوا على قتل رسول الله ﷺ، اضطروه إلى الهجرة إلى المدينة، وفي السنة الثامنة للهجرة عاد إلى مكة يقود جيش الفتح العظيم.

تزوج «أبو سفيان» من «هند بنت عتبة» فكانت عونه على معاداة النبي ﷺ والمسلمين، وأبرز أولاده منها «معاوية» و«يزيد». وكانت «هند» صاحبة أنفة وكبرياء، واعتداد بالنفس شديد، وبينما هي ذات

يوم تمشي ومعها ابنها «معاوية» وكان صغيراً، قيل لها: إن عاش ولدك ساد قومه، فردَّت بزهو وقالت: ثكلته إن لم يَسُدْ إلا قومه، ولما كبر «معاوية» قال عنها: إنها في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخِيَر.

وفي إحدى المرات، كان «أبو سفيان» على رأس قافلة لقريش، وهو عائد من الشام في تجارة لها، فبلغه أن المسلمين سيعترضون طريقه للاستيلاء على ما معه من الأموال، فبعث رسولاً إلى قريش يستصرخها، ويطلب نجدتها لتحول دون استيلاء المسلمين على تجارتها، وكانت يومئذٍ موفورة المال.

ولما وصل رسول «أبي سفيان» إلى مكة، وأعلم قريشاً بالخطر الذي يعترض عِيرَها، تداعى زعماؤها ورجالها للخروج من أجل استنقاذ المال، واستئصال المسلمين، وكان رأس الداعين إلى ذلك أشقى قريش «أبو جهل».

وتعبأت قريش بالرجال والسلاح، وفيما كانوا على وشك الخروج إلى (بدر) أتاهم آتٍ ليخبرهم أن «أبا سفيان» غَيَّر طريقه المعتاد، ومضى بالقافلة حتى بلغ بها مكة سالمة، ولما تأكدوا من صحة ذلك، وجد زعماء قريش أن مبرر الحرب قد زال، ولم يعد لها من داع، والأموال والرجال بخير وأمان، لكن أشقاهم (أبا جهل) أبى إلا الخروج، ولم يكن يدري أنه ماضٍ بهم إلى الهلاك وسوء المصير.

وكان يوم (بدر) أحلك يوم مَرَّ على قريش في حياتها، وأشربت فيه «هند بنت عتبة» أَمَرَّ الكؤوس، فقد قتل أبوها: «عتبة بن ربيعة» وعمها «شيبة بن ربيعة» وأخوها «الوليد بن عتبة». ولقي غير هؤلاء مصرعهم كأبي جهل، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط،

والنضر بن الحارث، وكثير غيرهم، وارتد أبناء القتلى وأقرباؤهم إلى مكة، وقد جلَّلهم العار، وأقاموا المآتم والنوادي يبكون فيها قتلاهم، وينشدون الأشعار في مآثرهم، ويعدونهم بالثأر والانتقام، وكانت «هند بنت عتبة» تلح على زوجها «أبي سفيان بن حرب» وتحرضه على الثأر لأهلها وقومها.

وتحالفت قريش مع الأحابيش وقبائل من تهامة وبني كنانة للخروج إلى أحد، وقد حقق هذا التحالف هدفه، ونزلت بالمسلمين هزيمة منكرة قد نَجَمَتْ عن عصيان رماتهم أوامر قائدهم رسول الله ﷺ، الأمر الذي أفضى إلى سقوط كثير من الشهداء في أحد. لقد كان ما جرى درساً قاسياً وعاه المسلمون ولكن بعد أن حقق العدو بغيته، وقضى وطره بالانتقام لقتلاه يوم (بدر).

وكانت «هند بنت عتبة» قد خرجت إلى أحد، ووعدت «وحشي بن حرب» إذا قتل لها «حمزة بن عبد المطلب» بجائزة قيمة، كما وعده «جبير بن مطعم» أن يعتقه، ولما قَتَلَ «حمزة» هرعت «هند» إلى جثته، وبقرت بطنه، واستخرجت كبده وقضمت منها مضغة، فلاكتها، ثم لفظتها لأنها لم تسغها، وراحت مع صويحباتها يَجْدَعْنَ أنوف الشهداء ويَصْلِمْنَ آذانهم وَيَتَّخِذْنَ منها الأقراط والقلائد. وكاد «حنظلة بن أبي عامر» غسيل الملائكة أن يعلو رأس «أبي سفيان» بسيفه، فرآه ابن شَعُوب ـ وهو شداد بن الأسود ـ فحمل على «حنظلة» وبلَّغه الشهادة. وقال أبو جعفر الطبري[1]. [عن البراء، قال: ثم إن أبا سفيان أشرف علينا، فقال: أفي القوم «محمد»؟ فقال رسول الله ﷺ: **(لا تجيبوه)** مرتين، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: **(لا تجيبوه)**، ثم قال: أفي القوم ابن الخطّاب؟ ثلاثاً،

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٦).

فقال رسول الله ﷺ: (**لا تجيبوه**)، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، لو كانوا في الأحياء لأجابوا، فلم يملك «عمر بن الخطاب» نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله! قد أبقى الله لك ما يخزيك! فقال: اعْلُ هُبَل، اعْلُ هُبَل! فقال رسول الله ﷺ: (**أجيبوه**)، قالوا: ما نقول؟ قال: (**قولوا: الله أعلى وأجلُّ!**) قال أبو سفيان: ألا لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم! فقال رسول الله ﷺ: (**أجيبوه**) قالوا: ما نقول؟ قال: (**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم؟**)، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال، أما إنكم ستجدون في القوم مُثَلا. لم آمر بها ولم تسؤني]. ثم دعا أبو سفيان فقال: هلم يا عمر، فقال له رسول الله ﷺ: (**ايتِهِ، فانظر ما شأنه؟**) فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشُدُك الله يا عمر! أقتلنا «محمداً؟ فقال عمر: اللَّهم! لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، فقال: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأَبَرُّ، لقول ابن قميئة ـ لعنه الله ـ : إني قتلت «محمداً». ومر بأبي سفيان «الحُلَيسُ بن زَبَّان» سيد الأحابيش، وهو يضرب في شدق «حمزة» بِزُجِّ الرمح، وهو يقول: ذُقْ عُقَقُ! فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون لحماً! فقال: اكتمها، فإنها كانت زلة.

فلما انصرف «أبو سفيان» ومن معه نادى: إن موعدكم بدر للعام المقبل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه (**قل: نعم، هي بيننا وبينك موعد**). وكان «أبو سفيان» قائد الأحزاب يوم الخندق، وجاءتهم الريح فقلبت بناءهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت، فرجعوا إلى مكة، ولم يكن قتال. ولما خرجت قريش بزيد بن الدثنة ـ وكان من أصحاب يوم الرجيع ـ ليقتلوه في التنعيم، كان فيهم «أبو سفيان» فقال له حين قدِّم ليقتل: أنشُدُك الله يا زيد! أتحب أن «محمداً» عندنا الآن مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله! ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس

في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب «محمد» محمداً، ثم قتله «نسطاس».

ويوم الفتح، فتح مكة العظيم، لقيه (العباس بن عبد المطلب) فمضى به إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وحين رأى جيوش «محمد ﷺ» وفيها الكثرة الكاثرة قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: إنها النبوة، قال: فنعم، إذاً، وكذلك أسلمت امرأته «هند» وبايعت رسول الله ﷺ وهي متنقبة، ثم عرفته بنفسها فصفح عنها. وذكر ابن الأثير[1] أنه شهد حنيناً وأعطاه رسول الله ﷺ مائة بعير وأربعين أوقية، وأعطى لولديه يزيد ومعاوية مثله، وأنه شهد الطائف ففقد عينه، وفقد الأخرى في اليرموك، وكان من المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه، وتوفي في خلافة «عثمان» عن ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

(١) أسد الغابة (٤/ ٤٧٢).

صفوان بن أمية بن خلف رضي الله عنه

سِدَادُ البطحاء

صحابي، قرشي، جمحيّ. لما توقفت قعقعة السيوف، وسكن صهيل الخيول، يوم بدر الخالد، أحست قريش بفداحة الخسارة التي أصابتها، وفظاعة الهزيمة المنكرة التي منيت بها، وراحت تجيل النظر في جنبات نواديها، وتقول: هٰهنا كان يجلس أبو الحكم بن هشام (المشهور بأبي جهل)، وهٰهنا مجلس «عتبة» وأخيه «شيبه» وابنه «الوليد» وهٰهنا كان يقعد شيخ قريش «أمية بن خلف» وهُنا مقعد «عقبة بن أبي معيط»، أما هُنا فمجلس «النضر بن الحارث» فأين هم الآن؟ وأين غيرهم ممن كانوا أعزَّ الرجال؟ لقد حصدت أسياف «محمد» ﷺ رؤوسهم، واتخذ بعضهم من قعر قليب بدراً مستقرّاً له ومُقاماً، وساء ذلك المستقر والمُقام. أما «أمية بن خلف» وابنه «علي» فقد استأسرا لعبد الرحمٰن بن عوف، وبينما كان «عبد الرحمٰن» آخذاً بأيديهما، بَصُرَ بهما «بلال بن رباح» عندليب الإسلام الصدَّاح، وداعية المسلمين إلى الوقوف بين يدي فالق الإصباح، كل يوم خمس مرات، خاشعين منيبين مستغفرين، يرجون رحمته، وينشدون مغفرته، ويسألونه جنته، ولما رآهما «بلال» صاح بملء فيه: لانجوتُ إن نَجَوَا، ثم قال: يا أنصار الله، رأس الكفر «أمية بن خلف» لا نجوتُ إن نجا، ولما قال له عبد الرحمٰن: أيْ بلال! أسيريَّ، قال بلال: لا نجوتُ إن نَجَوَا، فاخترطتهما سيوف الأنصار، ومزقتهما شر ممزَّق، لقد كانت ساعة القِصاص، ذلك أن «أمية بن خلف» كان سيداً لبلال ولما علم بإسلام «بلال» راح يذيقه أمرَّ كؤوس العذاب،

وكان يطلع عليه كل يوم بلون جديد، فتارة يضجعه عارياً على الرمال الملتهبة في الشمس المحرقة، وتارة يضع الصخرة الكبيرة على صدره، وكان يكرمه أحياناً فيسلق جسده بعدد من السياط كل ذلك، ليتفوَّه بكلمة الكفر، وهو لا يسمعه إلا كلمة: (أحد، أحد) فيمتلىء سيده غيظاً ويزداد خنقاً، فيشدِّد عليه العذاب، حتى جاء «الصدِّيق» ﷺ، فاشتراه منه، ثم أعتقه، وخلصه من ظلم سيده (أمية)، وشاء الله ألَّا يكون القليب له مقراً، فسارع الفساد إلى جسده، ولما أرادوا ضمَّه إلى أهل القليب، وكان بادناً ضخماً، تزايل جسده وتفرَّق، فتركوه حيث قتل، ثم أهالوا عليه الحجارة والتراب حتى واروه، فكان أهلاً لتلك الميتة الشنعاء، وجديراً بهذا المصير الوخيم.

وبلغ الحزن بابنه «صفوان بن أمية» مبلغه، ولم ير بداً من الثأر والانتقام، وفيما كان يفكر في الطريقة المناسبة، التقى بعمير بن وَهْب أحد أبالسة قريش ـ وكان ابنه وهَب قد أسر يوم بدر ـ فبثَّ كل منهما حزنه إلى صاحبه، وتبادلا الرأي حول مصابيهما، وما لحق بأصحاب القليب، فقال عمير: إن ما يمنعه من الخروج إلى «محمد» ﷺ، وقتله أمران: دين ركبه، وعيالٌ ما لهم راع سواه، وظن «صفوان» حين سمع منه ما سمع أن فرصة الانتقام قد واتت، وأن عليه اغتنامها، فقال لعمير: أما دينك فأقضيه عنك، وأما عيالك فأضمهم إلى عيالي، وما أصبتُ من خير فهو بَيْنَهُم جميعاً.

وراقت الفكرة لعمير، وسأل «صفوان» كتمان الأمر، ثم شحذ سيفه وسمه، ويمم شطر المدينة لينفذ ما اتَّعد عليه مع «صفوان».

ولما بلغ مسجد رسول الله ﷺ، رآه «عمر بن الخطاب» ﷺ، وهو ينيخ راحلته على البابَ، فقال: ما جاء إلا لشر، وقد رأى

السيف معه، ثم عمد إليه، فأخذ بحمالة سيفه، ولبَّبه بها[1]، ولما أدخله «عمر» على رسول الله ﷺ قال له: **(أرسله يا عمر! ادن يا عمير)** ولما سأله رسول الله ﷺ عما جاء به، أخبره أنه إنما جاء من أجل ابنه الأسير عندهم، ولما سأله عن السيف الذي يتوشحه، أنكر أن يكون لهذه السيوف من خَنَاء، وأنها لا تجدي فتيلاً. كان رسول الله ﷺ حليماً وصبوراً، فاحتمل مراوغته ثم قال له: **(أصدقني بالذي جئت له)** قال: ما جئت إلا بسبب ابني، فقال ﷺ لما رأى إصراره على الكذب: **(بلى، قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيالي لخرجت حتى أقتل «محمداً»، فتحمل لك «صفوان» بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله ﷻ حائل بيني وبينك)**. وصَعِق «عمير» حين سمع مقالة رسول الله ﷺ، ثم قال: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله! إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: **(فَقِّهُوا أخاكم في دينه، وأقرئوه وعلموه القرآن، وأطلقوا له أسيره)** ففعلوا. ثم استأذن رسولَ الله ﷺ في العودة إلى مكة، ليصلح كل ما أفسده فيها ويدعو إلى الله من يعرف ومن لا يعرف، فسمح له بذلك.

وكان «صفوان» يترقب أخبار «عمير» بصبر نافذ، ويَعِدُ قريشاً بخبر سارٍّ سوف تسمعه قريباً، دون أن يدري أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن. وبينما «صفوان» مستغرق في أوهامه، مستسلم

(١) لَبَبَهُ بها: شَدَّها على عنقه.

لخياله، ينتظر البشرى من «عمير» أتاه قائل يقول: يا صفوان، أما علمت أن «عمير بن وهب» قد صبأ، ودخل في دين محمد ﷺ؟ ووقع الخبر على «صفوان» وقوع الصاعقة، وأخذه ذهول شديد، حتى إذا أفاق منه، أقسم ألَّا يكلم «عميراً» ولا ينفعه بشيء بعد أن خفر بعهده معه، وقلب له ظهر المِجَنِّ.

وجاء «عمير» إلى مكة تحف به أنوار الإيمان، وراح يدعو إلى الله على بصيرة، ويلحق بمن خالفه الأذى الشديد، حتى نجح في إدخال الكثير من أهل مكة بالدين الحنيف.

وكان «صفوان بن أمية» أحد فصحاء قريش المشهود لهم بروعة البيان، وأحد أشرافها في الجاهلية، وأحد المطعمين حتى قيل: لم يجتمع لقوم أن يكون منهم مطعمون خمسة إلَّا لعمرو بن عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف، فقد أطعم «خلف» و«أمية» و«صفوان» و«عبد الله» و«عمرو». ولما سأل «معاوية» يوماً: من يطعم بمكة؟ فقالوا: عبد الله بن صفوان، فقال: بَخ بَخ، تلك نار لا تطفأ. لقد كان شرف الإطعام عند قريش «لبمكان»، ولم يتأتَّ إلا للأقلين! وضاقت بـ (صفوان) السبل، وبلغ الضيق به ذروته بعد فتح مكة العظيم، فأزمع الهرب إلى «جُدَّة» ولم يهن ذلك على ابن عمه «عمير بن وَهْب» فجاء ومعه ابنه «وَهْب» إلى رسول الله ﷺ يستأمن له، فأمَّنه رسول الله ﷺ، وبعث إليه ببردته أو ردائه، وقيل: بعمامته التي كان يعتجرها حين دخل مكة فاتحاً، أماناً له.

ثم لحق «عمير» بصفوان قبل أن يغادر إلى «جدة» وأخبره بالأمان الذي حصل له عليه من رسول الله ﷺ، وأراه الدليل، فرجعا معاً إلى رسول الله ﷺ، فلما وقفا عليه، وهو في ملإ من الناس، ناداه صفوان، وقال: يا محمد! إن هذا «وهب بن عمير» يزعم أنك

أمَّنتني على أن لي مسير شهرين، فقال له رسول الله ﷺ: (**انزل، أبا وهب،**)، فقال: لا، حتى تُبَيِّن لي، فقال رسول الله ﷺ: (**انزل ولك مسير أربعة أشهر**) فنزل[١].

ويوم «حُنَيْن»[٢] ذُكِرَ لرسول الله ﷺ أن عند «صفوان بن أمية» أدرعاً وسلاحاً، فأرسل إليه، فقال: (**يا أبا أمية**، ـ وهو يومئذٍ مشرك، وكان يناديه مرة أبا وَهْب، ومرة أبا أمية ـ **أعرنا سلاحك هذا نَلْقَ فيه عدونا غداً**)، فقال له صفوان: أغصباً؟ يا محمد، قال: (**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**)، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح، وزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيه حملها ففعل، وشهد «صفوان» مع رسول الله ﷺ حنيناً وهو كافر.

قال ابن الأثير في ترجمة صفوان في أسد الغابة: فلما انهزم المسلمون ـ أي يوم حنين ـ قال «كَلَدَة بن الحنبل» وهو أخو «صفوان» لأمه: ألا بطل السحر، فقال صفوان: اسكت، فَضَّ الله فاك، فوالله! لأن يَرُبَّني[٣] رجل من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن، يعني «عوف بن مالك النَّضْري».

وبعد أن دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الثبات فتح الله عليهم، وغنموا مغنماً عظيماً، وقد روى الزهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن صفوان، أنه قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ.

وحين رأى «صفوان» كثرة ما أعطاه رسول الله ﷺ قال: والله،

---

(١) انظر أسد الغابة (٢/ ٤٥٢).
(٢) انظر تاريخ الطبري (٣/ ٧٣).
(٣) يَرُبَّني: أي يسود عليّ.

ما طابت بهذا إلا نفس نبي، فأسلم، وردَّ النبي ﷺ إليه أمانته، وأقام بمكة، وقيل له[١]: من لم يهاجر هلك، ولا إسلام لمن لا هجرة له، فقدم المدينة مهاجراً، فنزل على «العباس بن عبد المطلب»، فذَكَرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **(لا هجرة بعد الفتح)** وقال: **(على من نزلت؟)** فقال: على العباس، فقال: **(نزلت على أشد قريش لقريشٍ حبّاً)** ثم قال له: **(ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة، فقَرُّوا على سَكِناتِكُمْ)**[٢]. فرجع، وظل فيها حتى وافته المنية غِبَّ مقتل ذي النورين «عثمان بن عفان» رحمه الله تعالى.

(١) أسد الغابة (٢/ ٤٥٣).
(٢) السَّكِنَةُ: المَسْكَنُ.

صُهَيْبُ بن سِنَانٍ الروميُّ رضي الله عنه

سابق الروم

صحابي، لم يكن رومياً، ولكنه عربي الأبوين والمولد، وسمي «الرومي» لأن الروم سَبَوْه في صغره، والده «سنان بن مالك» وأمه «سلمى بنت قعيد»، وكنَّاه رسول الله ﷺ: بأبي يحيى.

عاش «صهيب» في بيت ترفٍ ونعيم، وكان والده عامل «كسرى» ملك فارس، على الأُبُلَّة، وقد منح لولده «صهيب» أعمق الحب، وكان مسكنهم في أرض الجزيرة على الفرات.

وذات يوم خرجت به والدته للنزهة عند «الثني» ومعهما الخدم والحرس، فما راعهم إلا سرية رومية أغارت عليهم فقتلت الحرس وسلبت ما معهم، وحملت «صهيباً» الصغير أسيراً، وعادت «سلمى» إلى دارها والحزن يكاد يفطر قلبها على ولدها، وكاد أبوه يجن لِفَرْطِ تعلقه به، وحبه له. وفي بلاد الروم اشتراه رجل من أهل اليسار، وضمه إلى خدمه في القصر الذي يقيم فيه. صحيح أن مستوى المعيشة في بيت والده لا يختلف كثيراً عن مستوى المعيشة في بيت مولاه الرومي، لكن ثمة فرق واحد لا يُتَغاضى عنه الْبَتَّةُ، ذلك أنه كان في بيت والده يعيش حراً طليقاً كبلبل في الحديقة يتنقل من شجرة إلى شجرة، ومن فنن إلى فنن، أما في قصر الرومي فحريته مسلوبة، وحركته محدودة، والرقباء عليه كُثُرٌ، والأنظار رَصَدٌ، لا تتحول عنه في ليل ولا نهار.

لقد أدرك «صهيب» كم هي ثمينة تلك الحرية التي كان يتمتع

بها، حتى إذا فقدها عَرَفَ أنها لا تقدر بمال. وحصر تفكيره كله في شيء واحد فقط، هو: كيف يستعيد هذا الشيء الثمين الذي خسره؟ الحرية!. ثم بدأ يغلي في صدر «صهيب» شيء لا يستطيع مداراته أو التخلص منه، ذلك هو الحنين إلى الأهل والوطن الذي دبَّ على أرضه، وطعم من خيراته، وشرب من مائه النمير، وأخذ يترقب الفرصة المواتية ليترك هذا السجن أو هذا القصر، لا فرق بينهما، ما دامت حريته مسلوبة، وإرادته معدومة.

تغير فيه شيء ظاهر هو لسانه حيث خالطته لَكْنَةٌ بدَّلت لهجته العربية بحكم وجوده في بيئة رومية، بيد أن باطنه لم يطرأ عليه أي تبديل، وما زال في أعماقه يحن إلى وطنه وقومه، ويُكِنّ لهما أعمق الحب والتقدير.

وذات يوم، كان سيده يتحدث إلى أحد الكهنة، وسمعه يقول له: لقد أَظَلَّ ظهور نبي في جزيرة العرب، وقد رأيت ذلك في كتبنا. وحين سمع «صهيب» ذلك، تأجَّجت فكرة الهرب في رأسه؛ لأنه شعر برغبة مُلِحَّة، إنه يريد أن يلتقي بهذا النبي ليسمع منه، ويعلم بما جاء به، وصارت مكة شاغله، وهيمنت على تفكيره، وتعلق بها اللب والفؤاد.

يقول ابن الأثير[1]: [وقال أهل صهيب وولده ومصعب الزبيري: إنه هرب من الروم لما كبر وعقل، فقدم مكة، فحالف ابن جدعان، وأقام معه إلى أن هلك]. لقد يسَّر له ابن جدعان سبيل العمل بالتجارة، وبَصَّره بأمورها حتى أصبح من أهل الغنى واليسار، ولما أظهر رسول الله ﷺ للناس دعوته، بادر «صهيب» إلى دار

(١) أسد الغابة (٢/ ٤٦١).

«الأرقم بن أبي الأرقم» بعد أن علم أن رسول الله ﷺ فيها مع جماعة من المسلمين، وعلى باب الدار لقي صديقاً له يدعى «عمار بن ياسر» ودار بينهما حوار، قال عمار: ما الذي تريده يا صهيب؟، قلت: ما الذي تريده أنت يا عمار؟، قال: أريد أن أرى «محمداً» وأسمع ما يقول، قلت: وأنا كذلك، ودخل الرجلان فسلَّما عليه، وأسلما بين يديه. ومكثا إلى الليل حتى تهدأ العيون، ويسود السكون، ثم انطلقا تحت جنح الظلام كل إلى غايته، بَيْدَ أنَّ استخفاءهما لم يدم طويلاً؛ لأن أعوان قريش ورقباءها مبثوثون في كل مكان، ويصعب على رجل واحد أن يتوارى عنهم، ويستخفي منهم، ولما كشفت قريش أمرهما ضَمَّتْهما إلى قائمة المستضعفين الذين كانت تذيقهم ألوان القهر وصنوف العذاب، وكان رسول الله ﷺ يأمرهم بالصبر، ويخبرهم أن الله سيأتي بالفرج، وجاء الوحي ليخبر رسول الله ﷺ أن يأمر أصحابه بالهجرة، فأخذوا يغادرون مكة في غفلة من قريش، ولما خرج رسول الله ﷺ وصاحبه «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه وأعجزهم أن يدركوهما، ضيقوا الخناق على أصحابه، وشدَّدوا الرقابة عليهم ليمنعوهم من مغادرة مكة.

ولما هَمَّ «صهيب» بالهجرة، والتمس الطريق إلى المدينة، كان سفهاء قريش له بالمرصاد. وحين برزوا له، وكان عدة رجال من قريش، قال لهم وقد نثلَ كنانته[1]، وبلهجةٍ واثقة: يا معشر قريش، تعلمون أني من أرماكم، والله لا تصلون إليَّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، فقالوا: دلنا على مالك، ونخلِّي عنك، فتعاهدوا على ذلك، فدلَّهم عليه، ولما تأكد لهم صدقه، خَلَّوا عنه. فلما بلغ

(١) نثل كنانته: أخرج سهامها.

المدينة، ورآه رسول الله ﷺ عن كثب: قال: (رَبِحَ البيعُ أبا يحيى)، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

أجل، لقد كانت صفقة رابحة، ربح فيها «صهيب» الكثير الكثير، أمِنَ على نفسه ودينه، وبات قرب حبيبه ورسوله ﷺ، وأما قريش وسفهاؤها فكانوا من المغبونين! وقد آخى رسول الله ﷺ بين «صهيب» وبين «الحارث بن الصمة» الأنصاري.

ولازم «صهيب» مجالس رسول الله ﷺ ينهل من معينه، ويتفقه بأحكام دينه، فإذا خرج مع المسلمين إلى الجهاد صحبهم رغبة في إعلاء كلمة الله.

وقد شهد «بدراً» ورأى بأم عينه مصرع زعماء الشرك، وطواغيت الكفر، ومصيرهم البائس، ومستقرهم المظلم في قعر القليب.

وعَزَّ عليه ما نزل بالمسلمين يوم (أُحُد) وثبت مع الذين ثبتوا دون رسول الله ﷺ وساءه ما فعله الفُرَّار في ذلك الحين.

ثم خرج إلى «الخندق» ولم يكن يومئذٍ قتال، فعاد مع رسول الله ﷺ وثابر على حضور جميع المشاهد حتى التحاقه بالرفيق الأعلى، لقد حلَّ الخطب، وثقل المصاب على المسلمين عامَّة، وعلى «صهيب» خاصَّة. وما ذاك إلا لشدة تعلقه بالحبيب الأعظم بعد أن قطع إليه المسافات، وبذل كل نفيس وغال، ليعيش بقربه، وينعم بحبه. ولم يجد غير الاستسلام لمشيئة الله.

وأخرج ابن الأثير في موسوعته[1] قال: أخبرنا أبو منصور بن

(١) أسد الغابة (٢/ ٤٦٢).

مكارم بإسناده عن أبي زكريا، أخبرنا إسحاق بن الحسن الحَرْبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عمارة بن زاذان، عن ثابت، عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: **(السُّبَّاق أربعة: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبش)**[١].

وتابع ابن الأثير يقول: حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وصهيب، وخبَّاب، وعمار بن ياسر، وسمية أم عمار رضي الله عنهم أجمعين، فأما النبي ﷺ فمنعه الله، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الآخرون فأُخِذُوا وأُلْبِسُوا أدرع الحديد، ثم أُصْهِروا في الشمس.

ثم نقل ابن الأثير حديث «صهيب» عن رؤية المؤمنين لله تعالى شأنه، بعد دخولهم الجنة، فقال: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: **(إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله ﷻ موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقِّل موازيننا، ويبيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويخرجنا من النار؟ فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إلى الله تبارك وتعالى، فما شيءٌ أعطوه أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة)**[٢]. يقصد الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنى دخول الجنة، والزيادة، النظر إلى وجه الله تعالى.

---

(١) الإصابة (٣/ ٤٥١).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٤٨) والترمذي (٢٥٥٢).

كما نقل حديث «صهيب» عن استحلال المحارم، فقال: حدثنا محمد بن إسماعيل الواسطي، حدثنا وكيع، حدثنا أبو فروة يزيد بن سنان، عن أبي المبارك، عن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما آمن بالقرآن من استحلَّ محارمه)**[١].

ويتابع ابن الأثير القول في ترجمته لصهيب بن سنان: وكان فيه مع فضله وعلو درجته مداعبةٌ وحسن خلق، روي عنه أنه قال: جئت النبي ﷺ وهو نازل بقُباءَ، وبين أيديهم رطب وتمر، وأنا أرمد، فأكلت، فقال النبي ﷺ: **(أتأكل التمر وأنت أرمد؟)** فقلت: إنما آكل على شقِّ عيني الصحيحة، فضَحِكَ رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[٢]. وقد ركبت لسان «صهيب» من جَرَّاء وجوده في بلاد الروم عُجْمَةٌ شديدة، ولُكْنَةٌ بَيِّنة. وقد جاء في الحديث الذي رواه زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: خرجت مع «عمر» حتى دخل على «صهيب» حائطاً[٣] له بالعالية، فلما رآه «صهيب» قال: يَنَاسَ يَنَاس، فقال «عمر»: ما له ـ لا أبا له ـ يدعو الناس؟ فقلت: إنما يدعو غلاماً له اسمه «يُحَنَّس»، وإنما قال ذلك لعقدة في لسانه.

فقال له عمر رضي الله عنه: ما فيك شيء أعيبه يا صهيب إلَّا ثلاث خصال، لولاهن ما قدَّمت عليك أحداً: أراك تنتسب عربياً ولسانك أعجمي، وتكتني بأبي يحيى اسم نبي، وتبذِّر مالك. فقال: أما تبذير مالي فما أنفقه إلا في حقه، وأما اكتنائي بأبي يحيى، فإن رسول الله ﷺ كنَّاني بأبي يحيى، فلن أتركها، وأما انتمائي إلى العرب، فإن الروم سَبَتْني صغيراً، فأخذتُ لسانهم، وأنا رجل من

---

(١) الترمذي (٢٩١٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٧٣٠٤).

(٣) الحائط: البستان.

النمر بن قاسط، ولو انفلقت عني روثة لانتميت إليها[١].

وكان «صهيب» يطعم الطعام حتى إنه ليسرف في ذلك، فقال له عمر: أراك تطعم كثيراً حتى إنك تسرف، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**خياركم من أطعم الطعام**). وكان أحمر البشرة، كثير شعر الرأس، لا بالطويل ولا بالقصير، وإن كان أقرب إلى القصر.

ولما طعن «عمر» نظر إلى الصحابة، ثم قال: (**ليصل بالناس صهيب**) وذلك حتى يختار أهل الشورى الذين عينهم من يخلفه، هكذا أراد «عمر» العليم بأقدار الرجال. ورحل «صهيب» إلى لقاء ربه، وله نَيِّفٌ وسبعون عاماً، وكانت المدينة مستقره الأخير، رحمة الله عليه، وبركاته.

(١) أسد الغابة (٢/ ٤٦٣).